رجال من معارك الإسلام

تأليف

محمد سدير

رائد الوحدة والتحرير

نور الدين محمود

مؤسسة الرسالة

رائد الوحدة والتحرير
نور الدين محمود

ما أصيبت الأمة المسلمة، ولا تُصاب قط بشر من التمزق واختلاف الكلمة والخصومة، وتاريخها شاهد على أن وحدتها دائماً هي سر قوتها وانتصارها، وأن تمزقها واختلافها هو سبب ضعفها وتخلفها، وحدة وعزة، أو تمزق وذلة، وتتضح هذه الحقيقة في أحداث الحروب الصليبية، كما تتضح في كل فترات التاريخ الإسلامي، كما تتضح في كل ما أصاب ويُصيب العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر.

وما تمكنت الحملات الصليبية من غزو المشرق الإسلامي، وإقامة الدول والإمارات فيه؛ الا لتفرّق المسلمين واختلاف حكامهم وانشغالهم بأنفسهم وحرصهم على سلطانهم، وطمع كل منهم في كل ما في أيدي إخوانه، ولو أنهم توحدوا واجتمعوا في صف واحد، لتمكّنوا في يسر من صدّ تلك الحملات الصليبية التي كانت أشبه بموجات الهجرة منها بالجيوش النظامية.

تاريخ الحروب الصليبية، فقد عرف الداء، ووجه كل جهاده نحو توحيد المسلمين، ونحو حرب الصليبيين، فكان بحق رائد الوحدة والتحرير.

ولئن كان صلاح الدين الأيوبي قد استأثر بكل أضواء الحروب الصليبية، ويكاد نورالدين هو الذي مهّد الطريق، وحدد الهدف، وبيّن المعالم، وسار شوطاً بعيداً في توحيد الأمة، فلما تسلّم تلميذه صلاح الدين راية الجهاد، تسلم أمةً موحدةً من الفرات الى النيل، فمضى بها في طريق تحرير المشرق الإسلامي، حتى تمّ له النصر في حطين.

ونتأمّل سيرة نورالدين فكأننا أمام رجل من رجال الرعيل المؤمن الأول: إيماناً وخُلُقاً وسُلوكاً، ليس له هدف الا عزّة الإسلام والمسلمين، وليس له عمل إلا الجهاد في سبيل الله، مع الزهد في كل ما فرّق بين الأمراء والحكام المسلمين.

«وإذا كان لعظمة كل عظيم سرٌ، فإن سر نور الدين كله في إيمانه، فقد امتلأت نفسه بالإسلام، وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً، إلا عند الأوائل من أعلام صدْر الإسلام، وهذا الإيمان هو الذي حوله من أمير الى مجاهد، ومن رجل من رجال الحكم والسياسة الى زاهد، وهو الذي

أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والتغلب عليها رغم قلّة الموارد.

ومهما أطلنا في دراسة نورالدين، فإننا ننتهي إلى حقيقة رئيسية، هي أن الإسلام بطبيعته السَّمْحَة البسيطة، صادف عند نورالدين نفساً سمحةً مثله، وكانت تلك القوة الدافعة التي تخيل للإنسان انها تَصْدر عن بلد واسع عريض ذي ثروات وموارد، وما هي في الواقع بصادرة الا عن عزم وإيمان(١).

«كان يُخَيل للمتأمل في أحداث هذا العصر، أن ساعة الإسلام قد دنت، وأن زمانه قد ولّى، فقد أقبلت عليه جُموع النصرانية تهاجمه بعرض البحر الأبيض المتوسط، والتقى المسلمون مع الفرنج في حرب، هي حياة أو موت، في ميدان يمتد من طرف الغار في أقصى الجزيرة الأندلسية إلى أقصى المَوْصل شمالاً، وأخذت جموع المسلمين تتراجع في اتصال محزن، حتى ظن أحدهم، وهو ريجنالد صاحب الكرك، أنه فاتح مكة والمدينة، وقاضٍ على الإسلام وأهله، ولم تروع هذه الدعوى أحداً، ظل أصحابنا الفاطميون في مصر يهنّئون أنفسهم بما يجتمع في خزائنهم من

---

(١) صور من البطولة. ونور الدين محمود للدكتور حسين مؤنس.

ملك بيت المقدس الصليبي، حتى جاء نورالدين فتغير ذلك كله. فقد طالع الناس بسياسة إسلامية صريحة، لا تعرف الحيلة أو المداورة، وجابه الصليبيين بعداء صريح لا يعرف مرونة السياسة، ومضى يؤيّد الإسلام تأييداً متصلاً لا يكاد قلبه يعرف نوازع الطمع ولا بوادر الحسد.

لم يكن نورالدين بالجندي الماهر ولا بالسياسي الضليع، وإنما كان المؤمن الذي يغنيه الإيمان الصادق عن مهارة القيادة وحنكة السياسة، ويُعينه قوة الخُلُق واستقامة النفس على أساليب الشُّطَّار من ثعالب الناس.

ولو أن صلاح الدين كان مكان نورالدين لما استطاع ما استطاع، لأن صلاح الدين كان رجل سياسة وكياسة، ولم يكن الوقت يحتاج للسياسي الكيّس، وإنما للزعيم المخلص وللأب الكريم، الذي يكسب القلوب ويؤمّنها وينظّمها في صف الجهاد عقداً، وقد استطاع نورالدين ذلك على أجمل صورة وأدعاها الى الإعجاب، وخلّف قلوب الناس مفتحةً للجهاد، مُشْرَئِبَّةً إليه، ولم يبق على صلاح الدين إلا أن يقود، وقد قاد وانتهى الأمر بنصر الإسلام والمسلمين[1].

---

(١) صور من البطولة. ونور الدين محمود للدكتور حسين مؤنس.

والواضح من سيرة نورالدين محمود، أنه اتّبع سياسةً جديدةً لم تكن متّبعةً في عصره وهي سياسة نابعة من مبادىء الإسلام، تدور مع الحق حيثما دار، متأسية بالنبي صلى الله عليه وسلم ورجال السلف الصالح، وهي سياسة صريحة لا تعرف الدوران والمداهنة، ولا تعرف الوسائل الهابطة التي تبررها الغايات مهما كانت سامية، ولا تعرف الكذب والغدر في المعاملات، ولا تعرف العداء والخصومة إلا إلى أعداء الإسلام، ولقد دلّت أحداث تلك الفترة على أن هذه السياسة هي الاقوى والأنفع والأنجح، وأنها حققت في واقع الحياة ما حقق النصر للإسلام والمسلمين.

فنور الدين هو السياسي الذي وصل بسياسته المؤمنة إلى ما لم يصل إليه أحد من معاصريه، فجمع شمل المسلمين، ووحّد كلمتهم، وجعل منهم صفاً واحداً في مواجهة العدوّ الدخيل.

وهو القائد الفارسُ الذي يخوض المعارك، ويتعرض للخطر طلباً للشهادة، ويُجيد الحرب على صهوات الخيل كأعظم ما يستطيعه فرسان عصره.

وهو الأمير الذي تولّى إمارةً صغيرةً، محدودة الموارد، فلم يطمع قط فيما في أيدي إخوانه، وهو يعلم أنهم ضعاف، وأنهم يمالئون العدو، بل ويدفعون له الجزية في بعض

وموارده في حماية تلك الإمارات من غدر وعدوان العدو الصليبي، ولم يفكّر قط ان يحارب أميراً من إخوانه، أو أن يَعْدو على إمارة مسلمة، حتى بحجة التوحيد وجمع الكلمة.

وهو الحاكم الذي تحرى العدل في كل ما يفعل، وفي كل ما يقول، فلم تُخْصَ عليه مظلمةٌ لأحد، ولم يُعرَف عنه أنه سار في إمارته سيرة سابقيه أو لاحقيه، في الظلم والعدوان على الأنفس والأموال.

وتقرأ عن سياسته المالية ونظرته إلى المال العام وحياته المتواضعة البسيطة، فكأنك مع أحد الخلفاء الراشدين، أو في القليل تُذَكّرك بسيرة الخلفاء الراشدين، يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن نورالدين محمود: «وتتوارد في تاريخ عصره حكاية تصور وجهة نظره في هذه الناحية أصدق تصوير. حكي رجل من المشتغلين بخدمته، ان زوجه- وهي ابنة معين الدين أنر أمير دمشق- لم يكفها ما كان قرر لها من النفقة. قال: فأرسلتني إليه أطلب زيادةً في وظيفتها، فلما قلت ذلك لنور الدين تنكّر واحمرّ وجهه، ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال

هو لي، فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم. وأنا خازنهم عليها، فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين مُلكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها.. قال: وكان يحصل منها قدر قليل.

والمعروف عن نورالدين انه كان عالماً بأحكام الإسلام، يتقن العربية ويحفظ القرآن الكريم ويروي الحديث، ومن هنا كان إيمانه وكانت تقواه وكانت سياسته وكان سلوكه عن علم لا عن دروشة.

* * *

الحملات الصليبية الأولى:

كان الغزو الأوروبي للوطن الإسلامي الذي لبس سوح الدين، وحمل شارة الصليب للدفاع عن بيت المقدس وتأمين حجاجه، أبعد ما يكون عن الدين، وأبعد ما يكون عن رسالة المسيح عليه السلام.

لقد أخذ البابا يدعو في ايطاليا وفرنسا وألمانيا، إلى قتال المسلمين، فأهدر دماءهم ومنح أتباعه أرضهم وأموالهم، وفي عام ١٠٩٦ ميلادية، كانت أوروبا تغلي، وتنظم الجيوش وكتائب المتطوعين للخروج إلى المشرق الإسلامي -- بلاد السمن والعسل - كما كانوا يقولون.

إلى الشرق الإسلامي، تسرق وتنهب وتقتل وتشعل النيران في المدن، وتركت آثاراً مروِّعة في المجر وفي بلغراد وفي القسطنطينية، حتى الكنائس لم تسلم من عدوانهم.

كانت تلك الجيوش مجموعات من المغامرين، لا يدفعها دين، ولا يحكمها ضمير ولا خُلُق، فعاثت في أوروبا فساداً، قبل أن تصل إلى المشرق الإسلامي.

«إن استعراض قصة الصراع بين اتباع النصرانية والإسلام، وهي قصة المسألة الشرقية وتطلُّع الغرب الى السيطرة على الشرق منذ العصور الوسطى، يدل دلالةً واضحةً على أنها أقدم من ذلك بزمن طويل، يمكن إرجاعه إلى مُستهل القرن السابع للميلاد، حين ظهر الإسلام وبسط سيطرته السياسية والدينية على كثير مما كان بيد دولة الروم الشرقية من الأقطار، والولايات المطلة على البحر الأبيض المتوسط، في كل من غربي آسيا وشمالي إفريقيا.

«كما أن البابوية عاونت في عهود مختلفة على تحريض أتباعها، على استئصال شأفة المسلمين من شبه جزيرة أيبريا- الأندلس- على الإطلاق، ونهج هذا النهج كلٌّ من

البابا اسكندر الثاني ١٠٦١- ١٠٧٣م، وجريجوري السابع ١٠٧٣- ١٠٨٥ ميلادية[1] ».

ولا بد هنا من وقفة قصيرة مع ما ادعاه الصليبيون من اضطهاد المسلمين للنصارى، والعدوان على حجاج بيت المقدس من النصارى، فهي دعوى باطلة، كذّبها حتى بعض المؤرخين المسيحيين، فالإسلام من حيث المبادىء ومن حيث الواقع التاريخي، يُعتَبر اليهود والنصارى أصحاب ذمة وعهد، ولذلك يطلق عليهم أهل الذمة، وقد عاشوا قروناً طويلةً في كنف الإسلام في أوروبا وفي المشرق الإسلامي، فلم يتعرضوا من دولة إسلامية لاضطهاد ديني، وإن كان أصاب بعضهم شيء من الظلم في بعض العصور، فقد كان لانحراف بعض الحكام عن منهج الإسلام، وكان ظلماً عاماً، عانى منه المسلمون كما عانى أهل الذمة سواء بسواء.

فمن حيث المبادىء، فإن القاعدة العامة في الدعوة إلى الإسلام، هي قوله تعالى من سورة البقرة:

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ

والقاعدة العامة في معاملة أهل الكتاب تعالى في سورة الممتحنة.

---

(١) كتاب الحروب الصليبية الأولى - د. حسن حبشي.

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ [الممتحنة: ٨]

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، توصي بالبرِّ بهم، ويُحذر من ظلمهم، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

«من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».

ومن وصايا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في آخر حياته، قوله:

«أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم».

أما التطبيق فيكفي فيه شهادة كاتب نصراني.

«قال الدكتور ا. س. ترتون في كتابه «أهل الذمة في الإسلام»:

وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة البطريك «عيشويابة» الذي تولى منصبه ٦٤٧ - ٦٥٧ هجرية. في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، إذ كتب يقول:

إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم، يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا بأعداء النصرانية، بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قديسينا وقسيسينا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا.

ثم يقول ترتون: والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين عيشويابة وبين العرب، كان لصالح النصارى، فقد نص على وجوب حمايتهم من أعدائهم، والا يُحملوا قسراً على الحرب من أجل العرب، وألا يُؤذَوْا من أجل الاحتفاظ بعباداتهم وممارسة شعائرهم. وألا تزيد الجزية المجبية من الفقير على أربعة دراهم، وأن يُؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهماً.. وإذا كانت أمةٌ في خدمة مسلم، فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها، أو إهمال صلاتها، والتخلي عن صيامها[1]».

---

(١) عن كتاب التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالي.

والمجازر التي ارتكبتها الحملات الصليبية، أدركنا إلى أي مدىً كان يتمتع النصارى بالمعاملة الكريمة في ظل الإسلام.

وكذلك كان نورالدين محمود، فلم يُؤثر عنه قط أنه آذى أو ظلم ذِمّياً، حتى في ميادين القتال.

«لم يكن نورالدين يحارب الصليبيين على أنهم نصارى، بل على أنهم أجانب عن بلاد العرب والمسلمين، اعتدوا على الوطن العربي ومقدساته، ومن هنا، فإنه لم يَمَسَّ النصارى من أهل البلاد بسوء، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسةً، ولا آذى قسّاً أو راهباً، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا أهله المسلمين جميعاً، ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل، لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً، لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرةً بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا دخلوا بلداً، ضيّقوا على النصارى الأرثوذكسيين من أهله، فحرّموا على كنائسهم ضرب النواقيس، وآذوا القسس وحطوا من منزلتهم، فإذا عاد البلد إلى نور الدين تنفّس نصاراه الصعداء، وأمنوا إلى عدله وإنصافه[1]».

(١) كتاب صور من البطولة - الدكتور حسين مؤنس.

كانت الحملات الصليبية الأولى في حالة مزرية من الضعف والفوضى، أشبه ما تكون بأفواج المهاجرين والمغامرين، وأبعد ما تكون عن الجيوش النظامية، ولكنها تمكنت من إقامة الدول والإمارات في قلب الوطن العربي، واستقرت فيها. نتيجةً لضعف الأمراء والحكام، واختلاف كلمتهم ونكوصهم عن الجهاد، ولو أنهم اجتمعوا على كلمة سواء، ووحدوا صفوفهم، لقضوا على تلك الحملات الأولى حين قدومها وأبادوها، ولكن ما يبعث على الأسى أن الواحد منهم كان لا يعنيه إلا إمارته وسلطانه، يرمي في أحضان الصليبيين، ويدفع لهم الجزية لحمايته من إخوانه والحفاظ على ملكه.

إلا أن هذه الصورة المؤسفة القاتمة، قد تغيرت قليلاً في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، فقد ظهر في الأفق شخصيات إسلامية على مسرح الأحداث بالشام وشمال العراق، منهم رضوان أمير حلب، ومودود أتابك الموصل وخلفه البرسقي. فقد قاموا بعدة محاولات لمهاجمة بعض الإمارات الصليبية، وخاضوا بعض المعارك التي أقضّت مضجع الصليبيين. كما ظهر في الأفق بوادر الاتحاد.

وثارت جماهير المسلمين بالخليفة العباسي في بغداد، يطالبون بالجهاد وقتال الصليبيين وتحرير بلاد المسلمين.

الإسلامية، وليس أدل على تلك الإفاقة، من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة، في البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية، واعتناقها إياها، إلى حد أنذر الخليفة العباسي بوجوب الانتباه إلى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من أشراف حلب وصوفييها وتجارها وفقهائها إلى بغداد، مستغيثين من إفساد الصليبيين في بلادهم، إذ اجتمع أهل بغداد وقت صلاة الجمعة في شعبان ٥٠٤ هجرية- ١١١٠ ميلادية، فأنزلوا الخطيب عن المنبر، وحطموه، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد. وزادوا. فمنعوا الناس من الصلاة، وهو حدث جدّ خطير في الدولة الإسلامية. وتكرر هذا الحادث في مسجد الخليفة ذاته[1] »..

* * *

الأتابك الشهيد:

بعد قتل مودود ثم البرسقي، حسب المسلمون أن الميدان قد خلا، وأن الأمل قد ضاع، ولكن سرعان ما ظهر بطل جديد هو عمادالدين زنكي -والد نورالدين محمود-، فقد ولّاه

---

(١) كتاب الحروب الصليبية الأولى. د. حسن حبشي.

السلطان إمارة الموصل وحلب عام ١١٢٨ ميلادية. فلما استقر بالموصل، علم بهاجمة الصليبيين لحلب، فعجّل بالمسير إليها، وثبّت أقدامه بها، وأعاد الاستقرار إليها من جديد.

ولم يكن عماد الدين زنكي بعيداً عن مسرح الأحداث، فقد خاض المعارك ضد الصليبيين إلى جانب مودود والبرسقي، واختمرت في ذهنه فكرة توحيد العراق والشام، وحاول ضم دمشق، ولكنه لم ينجح، وانتهت محاولاته إلى نتيجة مؤلمة، إذ لجأ معين الدين أنر امير دمشق، إلى ملك بيت المقدس الصليبي لحمايته من عمادالدين، مقابل جزية شهرية، قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية، وتسليمه قلعة بانياس.

ترك عمادالدين زنكي دمشق واتجه لقتال الإمارات الصليبية، وقد تمكن من الاستيلاء على الرّها بعد قتال طويل وحصار عنيف عام ١١٤٤ ميلادية، وبهذا قضى على اكبر الإمارات الصليبية وأخطرها بعد بيت المقدس.

وكان لتحرير الرّها موجة فرح، عمّت العالم الإسلامي بعد أن بقيت ترزح تحت الاستعمار الصليبي أكثر من نصف قرن من ١٠٩٨ – ١١٤٤ ميلادية، كما كان له أكبر الأثر في غرب أوروبا، فهزّته هزّاً عنيفاً، حتى أن البابا «يوجين

«من الأسقف يوجين، خادم خدام الرب، إلى أعز أبنائه في المسيح، لويس السابع ملك فرنسا، وإلى أبنائه الأحباء.. أن الرُّها قد احتلها الكفرة، كما احتلوا كثيراً غيرها من قلاع النصارى...».

واستجاب ملك فرنسا لويس السابع إلى نداء البابا، وانضم اليه كونراد الثالث امبراطور المانيا، وقادا جيوشهما والقُوى الصليبية المنضمة إليها إلى الشرق لتحرير الرُّها، وبذلك بدأت الحملة الصليبية الثانية.

ولم يشهد عمادالدين زنكي مقدم هذه الحملة، فقد قُتل وهو في ميدان الجهاد عام ٥٤١ هجرية - ١١٤٦ ميلادية.. وسُمِّي عند مؤرخي عصره بأتابك الشهيد.

* * *

مرحلة الوحدة الشاملة:

بقتل عمادالدين زنكي - والد نور الدين - انتهت الحلقة الأولى من مسلسلة المحاولات في سبيل تكوين قوة إسلامية موحدة تجاه الصليبيين، وبدأ مرحلة جديدة بظهور نورالدين محمود على مسرح الأحداث.

تولى نورالدين إمارة حلب، بينما تولى أخوه سيف الدين غازي إمارة الموصل بعد موت أبيهما، وكان نورالدين مع أبيه عندما قتل، وكانت سنه حينذاك حوالي التاسعة والعشرين عاماً. وكان قد لزم أباه مدةً طويلةً في ميادين الجهاد، أي أنه قضى فترة شبابه مجاهداً في سبيل الله، فلما تولى إمارة حلب، كانت قد تحددّت في نفسه معالم طريق الجهاد، وبالرغم من أن حلب كانت إمارةً صغيرةً قليلة الموارد، إلا انه استطاع بحكمته وإيمانه وجهاده المتواصل أن يحقق الكثير.

كان العمل للوحدة عند نورالدين هدفاً واضحاً محدداً، كسبيل وحيد إلى القوة وتحرير المشرق الإسلامي من الصليبيين، بل كان العمل للوحدة عنده في مستوى العبادة، لا مجرد ضرورة تحتمها الظروف، لأنه من صميم العقيدة، وكان تحرير الوطن العربي الإسلامي، فرض عين يفرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً حتى يُؤدُّوا فريضة الجهاد بالنفس والمال. ويصبح مال الأمة كلها مرصوداً لفريضة الجهاد، فلا مال لأحد حتى يتم إجلاء العدو الدخيل، فإذا بدأ الجهاد فليس أمام المجاهدين في ميدان القتال إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

كان هذا المفهوم واضحاً عند نورالدين، وبهذا المفهوم

كانت إمارة دمشق تمتد جنوباً حتى تتاخم حدود مملكة بيت المقدس، على خط طويل يمتد شمالي الجليل، ومن هنا كان تفكير نورالدين في جعلها نواة الوحدة، ضرورةً حربيةً تحتمها ظروف الحرب مع القوى الصليبية في الشام وفلسطين. وكان معين‌الدين أنر أتابك دمشق، ما زال في حماية مملكة بيت المقدس الصليبية متمسكاً بحلفه القديم، فبدأ نورالدين بخطوة نحو توثيق عُرى الود والطمأنينة بينهما، فتزوج ابنته عام ١١٤٧ ميلادية، ولكن معين الدين برغم ذلك ظل محافظاً على حلفه الصليبي، وقد حدث- مع وجود ذلك الحلف- أن تعرضت بعض أجزاء إمارة دمشق لغارات صليبية، فخف نورالدين فخلّص دمشق من تلك الغارات، ثم عاد إلى إمارته دون أن يفكر في دخول دمشق.

وكانت الحملة الصليبية الثانية اكثر نظاماً واعظم عدداً وأوفر عدةً من الحملات الأولى، وقد وصلت بيت المقدس حيث عُقِد مؤتمر كبير في يونيو عام ١١٤٨ ميلادية حضره عدد ضخم من الملوك والأمراء ورجال الدين لتحديد وجهة الحملة وهدفها. وكان من الغريب أن يتقرر في هذا المؤتمر

توجيه الحملة نحو دمشق، مع انها جاءت أصلاً لتحرير الرّها.

وأدرك معين الدين أنر أتابك دمشق أنه في خطر، وأنه أضعف من مواجهة هذه القوات التي بلغت أكثر من مئتي ألف مقاتل، في تقدير كثير من المؤرخين. يقودها قواد محترفون من شتى بلدان أوروبا. فلم يجد معين الدين أنر مفراً من أن يستنجد بنورالدين، الذي لم يتردد في نجدته، فخف إليه في جيش كبير، ومعه أخوه سيف الدين غازي امير الموصل، كما خف المسلمون للجهاد من شتى بلدان العالم الإسلامي، ويقول مؤرخو ذلك العصر: إنه لم يتأخر عن الجهاد الكهول ولا الزهاد ولا الفقهاء ولا الأئمة.

ودارت معارك، انتصر فيها المسلمون انتصاراً ظاهراً، وارتد الصليبيون مهزومين إلى بيت المقدس، وقرر ملك فرنسا وامبراطور المانيا الرجوع إلى بلديهما. وبذلك كتب الفشل للحملة الصليبية الثانية.

«لقد كان فشل الصليبيين في الاستيلاء على دمشق، سبباً في ارتداد الحملة الصليبية الثانية، وكانت تهدد الإسلام وأهله بخطر شديد، وكان ارتداد هذه الحملة الصليبية بالفشل، هو الحد الفاصل بين الدور الأول والدور الثاني من أدوار هذا الصراع الطويل، بين الإسلام

والجرأة والثبات في عهده وبعده، لقد جنى المسلمون على يد نور الدين أول ثمرة من ثمرات التضامن والإخلاص. وأثبت نور الدين لمن يضع يده في يده، أنه آمن مطمئن كاسب من الاتفاق على كل حال، فتسارع إليه الناس يحالفونه ويضعون يدهم في يده.

أما الصليبيون فقد رُوِّعوا، وبدأت ريح الفشل تجري في صفوفهم، لقد عاشوا إلى الساعة في بلاد المسلمين معتصمين على ما أصاب المسلمين من تفرق، وما كان يخامر قلوبهم من كراهية بعضهم لبعض.. أما اليوم، فهذا نور الدين ماض يوحد قلوبهم وينظم صفوفهم ويعدهم للمعركة، الأخيرة الحاسمة، لتخليص الوطن الإسلامي الكريم من العدو المهاجم الدخيل.

لقد كسب نورالدين بقلبه الكريم للإسلام، ما لم يكسبه أبوه بسيفه الرهيب[1] ».

وبعد تحرير دمشق وصد الغارات الصليبية عنها، لم يحاول نورالدين الاستيلاء عليها، مع أن الفرصة كانت متاحةً، ولو أنه فعل لكان معذوراً بسبب عدم الثقة في

(١) كتاب صور من البطولة، د. حسين مؤنس.

حكام دمشق، والخوف من ارتمائهم في أحضان ملك بيت المقدس الصليبي من جديد، ولكن نور الدين لم يفعل، وظل حريصاً على منهجه، يريد الوحدة بالرضا لا بقوة السلاح.

انصرف نورالدين عن دمشق، واتجه نحو أنطاكية في نفس العام، فهزم جيشها وقتل أميرها إيموند، وبذلك أزال هذه الإمارة الصليبية التي استمرت عشرات السنين، أذاقت أهلها فيها الذل والهوان.

وعاد حكام دمشق- بعد معين الدين أنر- إلى الارتماء في أحضان دولة بيت المقدس الصليبية، وصبر عليهم نورالدين حتى ضج أهل دمشق، وضاقوا بحكامهم، واعتبروهم خونةً، وخرجوا عليهم.. فجاء نور الدين ودخلها بمعاونة أهلها، دون أن يريق قطرةً من الدماء.. وكان ذلك في عام ١١٥٤ ميلادية.

* * *

ثم مصر في نهاية المطاف:

كان من غير المعقول أن تتم وحدة شاملة بدون مصر، وقد جاءت الظروف مهيأةً مواتيةً لنور الدين، بل لقد كان القدر يُهيِّىء لمصر دوراً عظيماً، لتكون مركز الدولة الإسلامية الموحدة.

الصليبي مصر، ولم يلق مقاومة تذكر، فبعث نورالدين جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر لطرد الصليبيين منها.

وقد اشتد الصراع على أرض مصر بين الجيش الصليبي وقوات نورالدين، وبعد عدة معارك، تمكن اسد الدين شيركوه من التغلب على الصليبيين، وطردَهم من مصر، وكان الحكم الفاطمي في ذلك الحين، في دور الاحتضار، فبقي شيركوه في مصر، حتى تُوفي عام ١١٦٩ ميلادية فجعل نور الدين مكانه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فتولى الوزارة مكان عمه.

وبهذا أصبحت دولة نورالدين تمتد من الموصل الى مصر قطعة واحدة، وبذلك فُصلت دولة بيت المقدس عن بقية الإمارات الصليبية، فأصبحت معزولةً واضحة المصير.

وتُوفي نور الدين محمود في قلعة دمشق عام ١١٧٤ ميلادية، وتسلم الراية بعده صلاح الدين الأيوبي، الذي حقق الله النصر على يديه في حطين.

* * *